عصـور - تصنيف ج- المجلد 23 / العدد01 - جوان 2024
EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

معرف الكائن الرقمي للمقال:(DOI)1054239/2319-023-001-006

واقع المسلمين واليهود في الأندلس من سقوط طليطلة إلى غاية الطرد النّهائي(478-1023هـ/1085-1614م)

The Situation of Muslims and Jews in Al-Andalus from the Fall of Toledo to the Final Expulsion (478-1023AH/ 1085-1614CE)

د. محمد عيساوة *
جامعة باجي مختار - عنّابة-
aissaouamed@yahoo.com

تاريخ الإرسال:2024/01/01 تاريخ المراجعة:2024/01/25 تاريخ القبول:2024/05/17

الملخص:

يتناول هذا المقال واقع المسلمين واليهود في الأندلس بعد سقوط طليطلة عاصمة الثّغر الأوسط سنة (478هـ/1085م) وإلى غاية الطّرد النهائي، ويبيّن من خلال النّصوص التاريخية مختلف مظاهر وأشكال العنف والاضطهاد والتّقتيل والتّرويع التي تعرّض لها المسلمون واليهود من طرف النّصارى الذين عبّروا عن رغبتهم في الانتقام من المسلمين واليهود بكل الطرق المتاحة وذلك من خلال عدّة خطوات، أبانت في الأخير عن تعصّبهم الدّيني المقيت، وكرههم لكل ما يُمت للمسلمين واليهود بصلة. ونلمس ذلك خاصة بعد الاستيلاء الكامل على الأراضي الأندلسية، وظهور ما يُعرف بديوان التحقيق أو محاكم التّفتيش التي خالفت كل الأعراف والقوانين الدّولية القديمة منها والحديثة، حيث أبان النّصارى من خلال قام به محقّقوها ولجانها من فظاعة ووحشية وتعدّي على الحرمات، عن حقد دفين وتعصّب ديني بغيض لكلّ ما هو إسلامي أو يهودي، الأمر الذي اضطرّ الكثير من المسلمين واليهود للتّفكير في أمرين أحلاهما مُر، إمّا الهجرة والرّحيل نهائيا عن هذه الأراضي، وإمّا التنصّر والقبول بكل القوانين المفروضة عليهم.

الكلمات المفتاحية: المسلمون؛ اليهود؛ النّصارى؛ الأندلس؛ التّعصّب؛ محاكم التّفتيش؛ الموريسكيون؛ الاضطهاد.

*** د. محمد عيساوة، جامعة عنابة.**

Abstract :

This article discusses the situation of Muslims and Jews in Andalusia after the fall of Toledo, the capital of the Middle realm, in (478 AH/1085 CE) until their final expulsion. Through historical texts, it highlights various forms of violence, persecution, killing, and terror inflicted upon Muslims and Jews by Christians expressing their desire for revenge through various means. This ultimately revealed their religious bias and hatred towards anything associated with Muslims and Jews. This was particularly evident after the complete seizure of Andalusian lands and the emergence of what is known as the investigation offices or inspection courts, which violated all ancient and modern international norms and laws. Christians, through their investigators and committees, exhibited cruelty and brutality, violating sanctities out of deep-seated resentment and religious bigotry towards anything Islamic or Jewish. This forced many Muslims and Jews to contemplate two bitter options: either emigrate and leave these lands permanently, or convert to Christianity and accept all imposed laws.

Keywords : Muslims; Jews; Christians; Andalusia; Bias; Inquisition Courts; Moriscos; Persecution

- مقدّمة:

ظلّت الأندلس حتّى أواخر القرن الخامس الهجري نموذجا للتّسامح والتّعايش بين أصحاب الشّرائع الثّلاث (المسلمين والمسيحيّين واليهود)، رغم ما تخلّل هذه الفترة أحيانا من نعرات التّعصب، إلاّ أنّ هذا الوضع بدأ في التّغيير منذ اختلّ التّوازن بين القوّتين الإسلامية والمسيحية، ورُجحان كفّة الثّانية بعد استيلاء ألفونسو السّادس (Alfonso VI)على طليطلة عاصمة الثّغر الأوسط سنة 478هـ/1085م، فشرعت في الظّهور أولى مظاهر الحِقد والتّعصّب الدّيني المسيحي ضدّ المسلمين، وقد تُرجم ذلك في أعمالهم الوحشية التي مارسوها ضدّهم، من خلال كلّ أشكال العنف والإرهاب والتّرويع والقتل، والخروج عن قيم الشّرائع السّماوية، وقيم القوانين الوضعية، وخُتمت كل أعمالهم هذه بمحاكم التّفتيش التي تبقى صفحة سوداء في تاريخ الذّهنية الإسبانية.

ولم يسلم اليهود كذلك من هذا الاضطهاد، فبالرّغم مِن تعهّد النّصارى بحمايتهم بعد بقائهم في الأراضي التي شملها الغزو المسيحي، إلاّ أنّ هذا

التّعهّد سرعان ما تلاشى بفعل التّعصّب الدّيني عند ملوك قشتالة (Castilla)، وقد عانى اليهود الكثير من جرّاء ذلك.

من خلال هذا التّمهيد، أردنا في هذه الورقة البحثية: "واقع المسلمين واليهود في الأندلس من سقوط طليطلة إلى غاية الطّرد النّهائي"، أنْ نُجيب عن إشكالية الدّراسة التي تمحورت حول أشكال العنف والاضطهاد التي تعرّض لها المسلمون واليهود في الأندلس بعد سقوط طليطلة، وذلك من خلال رصدنا وتتبّعنا لهذا الواقع المرير الذي فُرض على المسلمين واليهود ابتداءً من سقوط طليطلة إلى غاية الطّرد النّهائي، ولتحقيق الغرض من هذه الدراسة وظّفنا المنهج التاريخي لِما يتضمّنه مِن إعمال أدوات الوصف والتّحليل، وتوثيق النّصوص من مظانّها المختلفة والمتنوّعة.

أمّا عن الدّراسات السّابقة حول الموضوع، فعلى حد علمنا أنّ كل الذين كتبوا حوله ركّزوا على الفترات الأخيرة من الوجود الإسلامي واليهودي في الأندلس، وفي بعض الأحيان كانت الدّراسات مركّزة على فترة ما بعد سقوط غرناطة، ومن بين هذه الدّراسات نذكر:

- التّنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين (1474-1516م) لحتالمة محمد عبده.
- الموريسكيون ومحاكم التّفتيش في الأندلس (1492-1616م) لحمادي عبد الله.
- أسرار اليهود المتنصّرين في الأندلس-دراسة عن اليهود المارنواس- لدرويش هدى.
- محاكم التّفتيش الاسبانية (1480-1516م) للزّوبعي بشرى محمود.
- محاكم التّفتيش في اسبانيا والبرتغال وغيرها لمظهر علي.
- المسلمون المدجّنون في الأندلس لحسين يوسف دويدار.
- وتذكّروا من الأندلس الإبادة لرائف أحمد.

1-واقع المسلمين في الأندلس بعد سقوط طليطلة وإلى غاية الطّرد النّهائي:

عاش المسلمون واليهود في ظلّ الحكم الإسباني الجديد واقعا أليما عانوا خلاله الأمرّين، وعاينوا فيه ألوانا وأشكالا من العذاب والاضطهاد، ولعلّ من بين الصور الأكثر بشاعةً وقهرا واضطهادا وإذلالا للمسلمين ما قام به السيّد القمبيطور (El cid Al campeador) (أنظر التّعليق رقم 1)، من حصارٍ شديدٍ على بلنسية، هلك من جرّائه أكثر النّاس جوعا، واضطرّ الكثير منهم إلى أكل الجلود والدّواب، ومنْ فرّ منهم فُقِئت عيناه أو قُطعت يداه، أو

دُقّت ساقاه أو قُتل(ابن عذارى، ج4، 1983: 33)، وبعد تغلّبه على بلنسية سنة 488هـ/1095م، عمد إلى إحراق المسلمين أحياءً، حيث أحرَق الأديب والشّاعر أبا جعفر أحمد بن عبد المولى(ابن دحية، 1993: 195)، ثمّ امتدت يده الطائشة إلى القاضي ابن جحّاف ليبطش به هو الآخر، وفي ذلك يقول ابن بسّام: "حدّثني من رآه في ذلك المقام، وقد حُفر له حفيرٌ إلى رُفغيْه، وأضرمت النّار حواليه، وهو يضمّ ما بَعُدَ من الحطب بيده، ليكون أسرع لذهابه، وأقصر لمدّة عذابه"(ابن بسّام،1997، ق03، مج1: 99)، ولم يتورّع بعد ذلك في إحراق الكثير من الأهالي بالنّار، ولم يتوقّف به الأمر عند هذا فحسب، بل راح يُمثّل بجُثَثِهم، إذْ عُلّقت بصوامع الأرباض، وبواسق الأشجار(ابن عذارى، ج4، 1983: 39).

وعمد بعد كل هذا إلى أهالي بلنسية فأغرمهم حتّى استأصل جميع ما عندهم، فعمّت المحنة، وعظُم البلاء، وتضاعف الغلاء، واستوى في عدم القوت الفقراء والأغنياء(ابن عذارى، ج4، 1983: 38)،فعلَ كل ذلك بالرّغم من أنّه كان أجيرا عند أمراء الطوائف، وقد أمّره بنو هود على جيشهم ولقّبوه بالسيّد. إلاّ أنّ عملهم هذا لم يشفع لهم، إذْ بمجرّد أن استطاع القمبيطور الاستيلاء على بلنسية، نراه يفعل الأفاعيل بأهلها المسلمين، ممّا يدل على أنّ عمله السّابق إلى جانب المسلمين لم يكن من أجل تقويتهم، بل من أجل إضعافهم، وذلك عملا لمصلحته الخاصّة، وطموحاته الشّخصية، وانتمائه الدّيني.

وبعد سقوط بلنسية نهائيا سنة 636هـ/1238م، تعرّض المسلمون لشتّى أنواع الاضطهاد، والتعدّي على الحرمات، ووصل الحد بالنّصارى أن تعدّوا على حُرمة الأموات، فنُبشت قبورهم، وقد ورد ذلك في سياق ترجمة ابن الأبّار لأبي عامر ابن شرويّة محمد بن جعفر بن خيرة بقوله: "... وتوفي سَحر ليلة الاثنين سادس ذي القعدة سنة 547هـ/1152م، ودفن خارج باب بيطالة، وما زال قبره هناك معروفاً يُتبرّك به، إلى أن استولى الرّوم ثانية على بلنسية في أواخر صفر سنة 636هـ/1238م، فطمسوه وسائر قبور المسلمين". (ابن الأبّار، ج2، 1995: 13).

ولعلّ ما قامت به محاكم التّفتيش النّصرانية أو ما يُعرف بديوان التّحقيق (Inquisition) بعد الاستيلاء الكامل على الأراضي الأندلسية، ما يُغني عن كل كلام قيل في تعصّب النّصارى قبل ذلك(أنظر التّعليق رقم2)، فقد عهد الملك "فرناندو" (Fernando) إلى الكاردينال "خمنيس دي

عصـور - تصنيف ج- المجلد 23 / العدد01 - جوان 2024
EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

سيسنيروس" (El cardénal Ximenex de Cisneros) مطران طليطلة ورأس الكنيسة الاسبانية مهمّة تنصير مسلمي الأندلس، وكان هذا الرجل من أشدّ أهل الأرض قاطبة عداوة للإسلام والمسلمين، بل إنّ البغضاء المشحونة في قلبه كانت مضرب الأمثال لعصور طويلة، فأنشأ هذا الرجل ديوان التّحقيق أو ما عُرف تاريخيا بمحاكم التفتيش، وكان أوّل عمل لهذه المحاكم أنْ جمعت كل المصاحف وكتب العلم والفقه والحديث، وأحرقت في ميدان عام كخطوة أولى لتنصير المسلمين، بقطع الصلة عن تراثهم وعلومهم الشّرعية(عطيات أحمد، 2012: 131)، وممّا قيل في هذه الحادثة أنّ بعض الجند النّصراني ولشدّة افتتانهم بسحر كتب المسلمين وجمالها، المكتوب بعضها بماء الذّهب والفضّة، أخذوا يُخفون ما قدروا عليه في أرديتهم(السّعيد خالد ، 2018: 125).

ويُعلّق الباحث خالد السّعيد على هذا الفعل الشّنيع بقوله: "وما علموا أنّهم بذلك قد ارتكبوا بحق أنفسهم وبحق البشرية جريمة لن تُمحى من سجلات التاريخ، ولو أنّهم تركوا تلك المصنّفات، أو بعضا منها، لوصلنا علم عظيم وفضل غزير، ولكنّها العقول المتحجّرة والقلوب المتفحّمة تقضي في لحظات على ما أنفقه العلماء من سنين في التفكير والتأليف لصالح الإنسانية وخير البشر، وسيظل هذا العمل الهمجي وصمة عار في جبين إسبانيا المسيحية لن يزول مهما تعاقبت القرون"(السّعيد خالد ، 2018: 124-125).

بعد هذه الخطوة عمد النّصارى إلى المساجد فحوّلوها إلى كنائس، ثمّ جمعوا من بقي من الفقهاء وأهل العلم وأجبروهم على التّنصّر، فوافق البعض مُكرهًا وأبَى الباقون، فقُتلوا شرّ قتلة، وكان التّمثيل بجثث القتلى جرس إنذار لباقي المسلمين إمّا التنصير وإمّا الموت والقتل والتّنكيل وسلب الأموال والممتلكات(عطيات أحمد، 2012: 131).

والجدير بالذكر أنّ هذه المحاكم قامت بتجنيد السّكان النّصارى المحلّيين للمساهمة في التجسّس على الموريسكيين(أنظر التّعليق رقم3)، وذلك بإصدارها "فرمان الإيمان"، إذ حتّم على كل نصراني أن يُنهي إلى مركز الديوان في غير تباطؤ ما يترامى إلى سمعه بشأن الملحدين "الموريسكيين"، وللمقصّرين عقابهم الدّنيوي والدّيني معا، ومن أجل هذا لم ينج أحد من اشتباه جيرانه، وإساءة الظّن به حتى في نطاق أسرته، ولم يكن ثمّة أبرع من هذه الحيلة الماكرة في قهر السكان جميعا، وقمع نزعاتهم الحرّة، وشل تفكيرهم الطليق، وردّهم إلى الطّاعة العمياء، لأنّها رفعت

عصــور - تصنيف ج- المجلد 23 / العدد01 - جوان 2024
EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

التجسّس إلى الواجب الديني الخليق بالإكبار! (الطويل توفيق، 1991: 82)، فقُنّنت الوشاية وأصبحت واجبا مقدّسا، واقترنت بالوازع الدّيني(يحياوي جمال، 2011: 73-74). إذ اعتبرت هذه المحاكم أنّ النّصراني الذي يُقدّم الوقود لحرق الموريسكي المتّهم "يستحق المغفرة"(الطويل توفيق، 1991: 83).

كان موكب الإحراق Auuto-da-Fé يمر بشوارع كل مدينة، وكان القائمين عليه يقودون المحكوم عليهم بالموت حرقا عبر الطرقات، حتى الساحة التي يتلون عليهم فيها حكم المحكمة، وقراراتها غير قابلة للنقض من أوّل مرّة، ثمّ يتم حرقهم وسط ضجّة المتفرّجين وسرورهم وهياجهم، من روعة ما يشاهدون !!!(رائف أحمد، 1987: 309).

وبلغ التّعصّب بالنّصارى فوق ما يتصوّره العقل، إذْ كانوا يأتون بأهل المحكوم عليهم بالحرق ليشاهدوا ما يحدث، ولا يمكنهم أن يمتنعوا، ويعلو صراخ البنين والبنات والزّوجات والأمّهات، فيُقابل هذا الصُّراخ بابتسامة من طرف الحبر الأعظم من أجل تطمين هؤلاء بقوله: "كل هذا من أجل خلاص روحه، يجب أن تفرحوا له وتسعدوا لا أنْ تبكوا وتندبوا، النار تطهّره، وحسنة لكل من زاد في إشعالها... "(رائف أحمد، 1987: 309-310).

وكانوا يقبلون شهادة الأطفال والخدم والعبيد، والمجانين والسّكارى، وأيّ شهادة ضدّ المتّهم. ولا تُقبل أيّ شهادة في صالح المتّهم مهما كان صاحبها عدلا، وكان الإحراق بطيئا حتى لا يتم الموت بسرعة، فتأخذ الروح فرصة للسمو والتطهّر، فالألم هو أعظم ما يتغلّب به الإنسان على الشيطان، وفي بعض الأحيان كانوا يُرغمون الأهل على فعل ذلك، يفعلون كل هذا بمن ثبتت ضدّه تهمة الإسلام !!! (رائف أحمد، 1987: 310).

لقد خالفت محاكم التّفتيش الإسبانية كل الأعراف والقوانين الدّولية القديمة منها والحديثة، فإذا كانت القاعدة القانونية العالمية تقول: "إنّ المتّهم بريء حتّى تثبُت إدانته"، فإنّ محاكم التّفتيش طبّقت العكس، "كل متّهم مذنب، حتّى تثبُت براءته"، والأدهى من ذلك أنّ تصرّفات هذه المحاكم قد تتجاوز أحيانا كل تقاليد التّقاضي والأعراف، ففي كثير من الحالات يكون القاضي هو المدّعي، وبلغ تعنّت هذه المحاكم حتّى أصبحت القاعدة عندها: "لأن يُدان مائة بريء زورا وبهتانا، ويعانوا العذاب ألوانا، خير من أن يهرب من العقوبة مذنب واحد.. !"(الطويل توفيق، 1991: 83).

وقد شهد شاهد منهم، وأقرّ بلا إنسانية مُحقّقي هذه المحاكم، وهو لورنتي Lorenti (أنظر التّعليق رقم4) عند قوله: "لستُ أقف لأصف ضروب التّعذيب التي كان يوقّعها ديوان التّحقيق، فقد رواها الكثير من المؤرّخين، لكن أصرّح أنْ لا أحد منهم يُمكن أن يُتّهم بالمبالغة فيما روى، ولم أرى في المحقّقين إلاّ رجالا بلغ جمودهم حد الوحشية"(يحياوي جمال، 2011: 70).

أمّا غوستاف لوبون فيعترف هو الآخر بفظاعة ووحشية هذه المحاكم، عند قوله: "صارت محاكم التّفتيش تأمر بإحراق كثير من المعمّدين على أنّهم من النّصارى، ولم تتم عمليّة التّطهير إلاّ بالتّدريج لتعذّر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة، ونصح كاردينال طليطلة التقيُّ الذي كان رئيسا لمحاكم التفتيش، بقطع رؤوس جميع من لم يتنصّر من العرب رجالا ونساء وشيوخا وولدانا، ولم يرى الراهب الدومينيكي "بليدا" (Bleda) الكفاية في ذلك؛ فأشار بضرب رقاب من تنصّر من العرب ومن بقي على دينه منهم، وحجّته في ذلك أنّه من المستحيل معرفة صدق إيمان من تنصّر من العرب. فمِنَ المُستحب إذن قتل جميع العرب بحدّ السيف"(لوبون غوستاف، 2013: 285).

لقد كان لهذه السّياسة المتعصّبة عظيم الأثر في إثارة مكامن الحقد والغضب في نفوس المسلمين، فكانت ثورتهم الأولى في منطقة البيّازين سنة 1500م، والتي امتدّت إلى البشرات وبسطة ووادي آش والجبل الأحمر، إلاّ أنّ هذه الثورة تمّ القضاء عليها في شدّة وقسوة بالغتين(عبد البديع لطفي، 1958: 175).

وعلى إثرِ هذه الثّورة صدر مرسوم في الحادي عشر من فبراير سنة 1502م، من الملكة إيزابيلا (Isabella) يُخيّر جميع المسلمين بين الخروج من الأندلس أو اعتناق المسيحيّة(بشتاوي عادل، 1983: 119)؛ إلاّ أنّ المسلمين رفضوا الخروج، وعزموا على المُقام في الأندلس، ويقول المقري في ذلك: "فلمّا رأى الطّاغية فرناندو أنّ النّاس قد تركوا الجواز (الرّحيل) وعزموا على الاستيطان والمُقام، أخذ في نقض الشّروط التي اشترط عليها المسلمون أوّل مرّة عند سقوط غرناطة، ولم يزل ينقضها فصلا فصلا إلى أنْ نقض جميعها، وزالت حُرمة المسلمين، وأدركهم الهوان والذلّة، واستطال عليهم النّصارى، وفُرضت عليهم المغارم الثّقيلة، وقطع عنهم الأذان في الصّوامع، وأمرهم بالخروج من غرناطة إلى الأرباض والقرى، فخرجوا

أذلّة صاغرين ثمّ بعد ذلك دعاهم إلى التّنصّر وأكرههم عليه..."(المقري، ج1، 1939: 68).

وتلا مرسوم إيزابيلا مجموعة مراسيم أخرى، منها مرسوم سنة 914هـ/ 1508م أُصدر من طرف الملك فرناندو(ت1516م) يحظر فيه على الأندلسيين المسلمين استخدام اللغة العربية، وارتداء الملابس التّقليدية، وممارسة العادات والتّقاليد الإسلامية والعربية (دويدار حسين، 1993م: 34-35).

وفي عهد الملكة خوانا المعتوهة (1504-1516م) ازدادت المراسيم الجائرة التي صدرت بشأن المسلمين في الأندلس، وصارت أكثر بنودا وأشدّ تضييقا، ومن هذه المراسيم: مرسوم خاص بالملابس، يحظر فيه على المسلمين المنصّرين قسرا ارتداء الملابس العربية التّقليدية، ويُلزمهم بارتداء الملابس الإسبانية؛ ومرسوم خاص بالذّبائح وفيه يحظر على المسلمين المنصّرين ذبح حيواناتهم على الطّريقة الإسلامية؛ ويقوم بالذّبح جزّار مسيحي من أصل إسباني قديم؛ ومرسوم خاص بمنع ممارسة الشّعائر الإسلامية والالتحاق بالثّوار، نصّ على أنّ كلّ مسلمٍ مُنصّرٍ يُضبط مُتلبّسا بممارسة شعائر الإسلام فإنّه يُعاقب بأشدّ العقوبات التي تصل إلى المصادرة، وكذلك إذا شارك في أيّ ثورة أو الالتحاق بالثّوّار المعتصمين بالجبال(دويدار حسين، 1993م: 35-39).

ويورد لنا المقري في كتابه "أزهار الرّياض" قصيدة لأحد أهالي الأندلس بالغة الأهمية من النّاحية التّاريخية- رغم ضُعف صياغتها الفنيّة- تصوّر لنا ما تعرّض له المسلمون من تعدّي على حرماتهم، من خلال سوء معاملتهم وقسوتها من طرف النّصارى المتغلّبين، وتُعدّ هذه القصيدة صرخة أندلسية إلى السلطان بايزيد خان العثماني(ت918هـ-1512م)، يشرح له فيها صاحبها حال الأندلس، وما أناخ عليها من عظيم المصائب، طالبا فيها من حضرته نجدة للمسلمين المنصّرين قهرا وجبرا(المقري، ج1، 1939: 108-109).

وقد عدّت الباحثة السّورية ليلى الصبّاغ هذه القصيدة أقوى صورة معبّرة عمّا آل إليه حال المسلمين في الأندلس من اضطهاد وتعدّي على الحرمات، إذ تقول: "مهما وصف المؤرّخون المعاصرون والقدماء مظاهر

EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

الاضطهاد التي طُبّقت في حق المسلمين معتمدين على مختلف الوثائق الإسبانية والعربية، فإنّ هذا الوصف يبقى ذابلا أمام الصورة التي قدّمها هؤلاء المضطهدون عن أحوالهم في نداء الاستغاثة الشّعري الذي وجّهوه إلى السّلطان بايزيد الثّاني سنة 1505م"(الصبّاغ ليلى، 1975: 118).

والقصيدة بصفة عامّة تقدّم لنا أمثلة دقيقة ومفصّلة عمّا تعرّض له المسلمون من سوء معاملة، تنم عن تعصّب ديني كبير من طرف النّصارى تجاه المسلمين، فقد كانوا يحرقون الكتب خاصة المصاحف، وممّا جاء في ذلك:

وكلّ كتابٍ كان في أمْرِ ديننا ففِي النّارِ ألقَوهُ بهُزءٍ وحُقْرة

وأحرقَ ما كانت لنا من وخلّطها بالزّبل أوْ بالنّجاسة

ولم يتركُوا فيها كتابًا لمُسْلِمٍ ولا مُصحفًا يُخْلَى بِه للقِراءة

(المقري، ج1، 1939: 112)

كما كان النّصارى يُفسدون عليهم صيامهم:

وفي رمضان يُفسدُون صيامنا بأكلٍ وشُربٍ مرّة بعد مرّة

(المقري، ج1، 1939: 112)

ويُرغمُونهم على ترك موتاهم دون دفن، إذا لم يحضر رجل الدين المسيحي ليتأكّد أنّه مات على دين النصارى:

ومَنْ جاءه الموت ولم يحضر الذي يذكّرهم لم يدفنُوه بحيلة

ويُترك في زبلٍ طريحا مُجدّلا كمِثل حمارٍ ميّتٍ أو بهيمة

(المقري، ج1، 1939: 112)

وأكثر من هذا كانوا يؤمرون بسبّ الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- وإجبارهم على عدم ذكره، ومن فعل عكس ذلك ناله العقاب الشّديد:

وقــدْ أمرونـــا أنْ نسُــبَّ نبيّنـــا ولا نذكُرَنَّــهُ فــي رخــاءٍ وشــدّة

وقد سمعوا قومًا يُغنّون باسمه فــأدرَكهُم مِـنْهم ألـيم المَضــرّة

وعـــاقبهُم حُكّـــامهم ووُلاّتهـــم بضـربٍ وتغـريمٍ وسـجنٍ وذلّـة

(المقري، ج1، 1939: 112)

كما أُرغموا على تبديل أسمائهم:

وقــدْ بُـدّلت أسـمائنا وتحوّلَـتْ بغيـرِ رضًـا منّـا وغيـرِ إرادة

(المقري، ج1، 1939: 112)

فهذه الأفعال إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ علـى حقد نصـراني دفـين، وتعصّب ديني أعمى بغيض لكل ما هو إسلامي، فرغم المعاملة الحسـنة التـي انتهجها المسلمون إزاء النّصارى في فترات قوّتهم، نجد فـي المقابـل العكـس تماما، فما إن تمكّن النّصارى من ترجيح الكفّة لصالحهم، حتى ظهرت بـوادر التّعصّب الدّيني واضحة لكل ذي عين.

2- واقع اليهود في الأندلس بعد سقوط طليطلة وإلى غاية الطّرد النّهائي:

لم يتعصّب النّصارى مع المسلمين فقط، بل تعصّبوا أيضا مع اليهـود، فبالرّغم من تعهّد النّصارى بحماية اليهود بعد بقائهم في الأراضي التي شملها الغزو المسيحي، إلاّ أنّ هذا التعهّد سرعان مـا تلاشـى بفعـل اشـتداد التّعصّـب الدّيني عند ملوك قشتالة.

فبعد معركـة أقلـيش(502ه/1108م) تعـرّض يهـود طليطلـة لمجـزرة رهيبة من طرف المسيحيّين، وأصبحت معابدهم عُرضة للهدم(Fernandez, 1983: 75)، ممّـا اضـطرّ بعضــهم علـى الارتـداد عـن ديانتـه، واعتنـاق المسيحية، في حين فضّل البعض الآخر العودة إلى غرناطة حيث الاضطهاد أقل. (بوتشيش إبراهيم، 1997: 102-103)

ورغـم تحـوّل الكثيـر مـن اليهـود إلـى الـدّين المسـيحي خوفـا مـن الاضطهاد، نجد رجال التّفتيش المسيحيّين المُعيّـنين من قِبـل محـاكم التّفتـيش يضعون الشّكوك حول مدى صدق مسيحيّتهم، ليفتكوا بثـرواتهم خاصـة وأنّ الكثير من العائلات اليهودية كانت ذات ثراءٍ فاحش، لـذلك راحـوا يتعقّبـونهم،

ليجدوا أنّ البعض منهم لازال يُمارس الشّعائر اليهودية سرّا(إيرفنغ واشنطن، 2000: 303).

ومن بين المراسيم التي صدرت في حقّ اليهود، مرسوم 30 مارس 1492م-897هـ وقّعه فرديناند وإيزابيلا يقضي بنفي اليهود، وينص على أنّ جميع اليهود الموجودين في البلاد غير المُعمّدين - أيّا كانت أعمارهم أو أحوالهم- عليهم أنْ يتركوا إسبانيا في موعد أقصاه 31 يوليو من نفس السنة، ولا يُسمح لهم بالعودة، ومنْ يُخالف ذلك تكون عقوبته الإعدام، وعليهم أنْ يتخلّصوا من أمتعتهم خلال هذه المدّة، ولهم أنْ يأخذوا معهم الأمتعة المنقولة وصكوك المعاملات، دون النّقد من ذهبٍ أو فضّة(درويش هدى، 2008: 41).

وقد حاولت بعض الشّخصيات اليهودية الكبيرة دفع مبلغ كبير من المال لفرديناند وإيزابيلا في سبيل سحب مرسومهما إلاّ أنّهما رفضا طلبهم، ولم يستطع كبار اليهود أن يُثنوا الملك والملكة عن قرارهما، وإلغاء مرسوم طرد اليهود من إسبانيا (النّعيمي أحمد، 1997: 14-26).

وممّا يفسّر لنا بأنّ هذه الحملة المسعورة التي شنّها النّصارى ضدّ اليهود ذات طابع ديني بحت هو وصف أحد الآباء الكاثوليكيين "آغابيدا" لها بقوله: "إنّه كان لملوك الكاثوليك أتباعهم المخلصون في كل مكان الذين يرفضون الزّندقة، ويتحمّسون للإيمان، لذلك أمرهم الملك بتشكيل أشدّ اللِجان لتحرّي سلوك الناس، وخاصة هؤلاء المُتمسْحِنِين الجُدد، فأُرسلت محاكم التّفتيش إلى مناطقهم لأجل هذا الغرض، وباشرت عملها بحماسها المعهود، ونتج عن ذلك إدانة الكثير من العائلات بالزّندقة في الدّين، وبممارسة اليهودية سرّا، والذين قُبلت منهم التّوبة في الوقت المناسب – بأن فضحوا سواهم – أعيد تعميدهم ثانية، بعد تعذيبهم بشدّة، حتّى لا يُعذّبوا أكثر بجهنّم، وأُنزلت بهم أشدّ الإهانات، أمّا الآخرون الذين فُضحوا، فقد تمّ حرقهم في المحارق العامّة أمام كل النّاس، وصُدرت أموالهم لصالح الدولة" (إيرفنغ واشنطن، 2000: 303).

واستنتج هذا الأب الكاثوليكي آغابيدا بأنّ شُحّ اليهود وجمعهم للمال هو لحكمة أرادها الرّب كي تصير هذه الأموال في خدمة قضية الإيمان، فكان مال هؤلاء الزّنادقة المارقين رجسا تمّ تطهيره في خدمة السّماء والتّاج الملكي، في حملة صليبية ضدّ مارقين آخرين هم المسلمين(إيرفنغ واشنطن، 2000: 303).

عصــور - تصنيف ج- المجلد 23 / العدد01 - جوان 2024
EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

وتُعد هذه الصُّور من الاضطهاد الدّيني الأبشع في تاريخ اليهود، وقد شهد بهذا أحد اليهود بقوله: "... في ساعة نحس وشؤم اكتسح الصّليب الهلال، واحتلّ مكانه على قمّة الحمراء، فهدم هذا الملاذ الوحيد، وخفت مصباح التّسامح الدّيني في اسبانيا، إذ تقرّر إخراج اليهود منها"(السّيوطي خالد، 2001: 70)، وبات اليهود في ظل النّصرانية يعانون أشد أنواع العذاب فكانوا يُحرقون أحياءً بالمئات(مؤنس حسين، 2004: 52)، بعدما كانوا ينعمون بتسامح ديني قلّ نظيره في ظلِّ الدّولة الإسلامية.

- خاتمة:

نخلص في نهاية بحثنا إلى القول أنّ المجتمع الأندلسي عاش في تاريخه طورين من حيث قبول التّعدّد الشرائعي، تمثّل الطّور الأوّل خلال الحكم الإسلامي، سمح فيه المسلمون للمخالفين بإقامة شعائرهم الدّينية، والمشاركة في الحياة الاجتماعية، دون أدنى حرج يُذكر، أمّا الطّور الثّاني فكان خلال الحكم الإسباني، أبان فيه النّصارى عن كره وحقد شديد لكلّ مَنْ لا يتوافق مع شريعتهم، خاصّة بعد الغزو الصليبي، الذي صاحبته عمليات كبيرة من الاضطهاد والإذلال، ألجأت في الأخير المسلمين واليهود إلى التّفكير في خيارين أحلاهما مُر، إمّا الهجرة وإمّا التّنصّر.

EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

التّعليقات:

- **التّعليق 1**: ولد السيّد بقرية بيبفارVivar قرب مدينة برغش عاصمة مملكة قشتالة، يُعرف في المصادر الإسلامية بالقنبيطور أو رذريق، أو لذريق صاحب الفحص، أو الطاغية، وجاء في كتاب الحلّة السيراء باسم الكنبيطور والقنبيطور وتعني كلمة campeador الخبير بالغزوات في أرض الأعداء. أمّا لفظة السيّد فتعود لبني هود الذين أمّروه على جيشهم، فكان أفراد الجيش ينادونه بالسيّد، وقد عمل السيّد أيضا قائدا للجيش القشتالي في عهد سانشو أخ ألفونسو السادس ملك قشتالة، كما كان يعمل لحسابه الخاص أحيانا أخرى كقائد لفرقة من جند المرتزقة، وتمكن من إقامة إمارة له في بلنسية سنة 487ه/1094م استمرّت عدّة سنوات. وقد لعب القنبيطور دورا بارزا في أحداث شرق الأندلس في عصر الطوائف. هلك ببلنسية في سنة 492هـ/1099م. أنظر: (ابن الأبّار، ج2، 1985: 125-126)؛ (ابن عذارى، ج4، 1983: 147)؛ (مؤنس حسين، 1950: 71)؛ (أبو مصطفى كمال، 1997: 27).
- **التّعليق 2:** عن وصف سجون محاكم التّفتيش وطُرق الاضطهاد والتعذيب الهمجية التي كانت مُتّبعة فيها، أنظر: (مظهر علي، 1947: أغلب صفحات الكتاب)؛ (حمّادي عبد الله، 1989: أغلب صفحات الكتاب).
- **التّعليق 3:** الموريسكيون أو الموريسكوس مصطلح إسباني Moriscos، وقد اختلف المؤرّخون في تحديد معنى المصطلح، لكن يكاد يكون الإجماع على أنّ هذه التّسمية أُطلقت على المسلمين الذين عاشوا في الأندلس بعد استرداد شبه الجزيرة الإيبيرية بالكامل، عام (897ه/1492م)، والذين أجبروا على اعتناق المسيحية. أنظر: (ريبيرا خوليان، 1994: 58)، (يحياوي جمال، 2011: 40-42)؛ (عبد الكافي مفتاح، 2005: 133).
- **التّعليق 4:** خدم محاكم التفتيش وتدرّج في الوظائف حتّى وصل إلى مرتبة الأمين العام. أنظر: (يحياوي جمال، 2011: 70).

- مصادر ومراجع البحث:

1- ابن الأبّار أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، (1995م)، التّكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهرّاس، د. ط، بيروت: دار الفكر.
2- ابن الأبّار أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، (1985م)، الحلّة السّيراء، تحقيق: حسين مؤنس، ط2، القاهرة: دار المعارف.
3- ابن بسّام أبو الحسن علي الشّنتريني، (1997م)، الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، د. ط، بيروت: دار الثقافة.
4- ابن دحية أبو الخطّاب عمر بن حسين،(1993م)، المُطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخران، ط2، القاهرة.
5- ابن عذارى أبو العبّاس أحمد بن محمد المراكشي(1983م)البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب, ج4، تحقيق: ج. س كولان و ليفي بروفنسال, ط2, بيروت: دار الثقافة.
6- المقري شهاب الدين أحمد بن محمد، (1939م)، أزهار الرّياض في أخبار عياض، ج1، تحقيق: مصطفى السّقا وآخران، د. ط، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
7- أبو مصطفى كمال السيّد، (1997م)، بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، الإسكندرية: مركز اسكندرية للكتاب.
8- إيرفنغ واشنطن، (2000م)، أخبار سقوط غرناطة، ترجمة: هاني يحيى نصري، ط1، لندن- بيروت: مؤسسة الانتشار العربي.
9- بوتشيش إبراهيم القادري، (1997م)، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين, د. ط, بيروت: دار الطليعة.
10- بشتاوي عادل سعيد، (1983م)، الأندلسيون المواركة، ط1، القاهرة.
11- حتاملة محمد عبده، (1980م)، التّنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين (1474-1516م)، ط1، الأردن: الجامعة الأردنية.
12- حمادي عبد الله، (1989م)، الموريسكيون ومحاكم التّفتيش في الأندلس (1492-1616م)، د. ط، تونس- الجزائر: الدّار التونسية للنّشر- المؤسّسة الوطنية للكتاب.
13- درويش هدى، (2008م)، أسرار اليهود المتنصّرين في الأندلس-دراسة عن اليهود المارنواس-، ط1، مصر: عين للدّراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
14- دويدار حسين يوسف، (1993م)، المسلمون المدجّنون في الأندلس، ط1، القاهرة: مطبعة الحسين الإسلامية.
15- رائف أحمد، (1987م)، وتذكّروا من الأندلس الإبادة، د. ط، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

16- الزوبعي بشرى محمود، (د. ت)، محاكم التّفتيش الاسبانية (1480-1516م)، د. ط، الأردن: زهران للنشر.
17- السّعيد خالد(2018م) حرقُ الكُتب- تاريخ إتلاف الكتب والمكتبات-، ط1، السّعودية: دار أثر للنّشر والتوزيع.
18- السّيوطي خالد(2001م) الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس (ابن حزم- الخزرجي)، د. ط، القاهرة: دار قباء.
19- الصبّاغ ليلى، (1975م)، "ثورة مسلمي غرناطة سنة 1568م"، مجلة الأصالة، ع27، الجزائر، ص. ص (116-175).
20- الطويل توفيق، (1991م)، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، ط2، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي.
21- عبد البديع لطفي، (1958م)، الإسلام في إسبانيا، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.
22- عبد الكافي مفتاح، (2005-2006م)، الموريسكيون ودورهم في الحفاظ على الهوية الإسلامية في الأندلس، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة التّحدي، سرت- ليبيا.
23- عطيات أحمد محمد، (2012م)، الأندلس من السّقوط إلى محاكم التفتيش، ط1، الأردن: أمواج للنّشر والتّوزيع.
24- لوبون غوستاف، (2013م)، حضارة العرب، ترجمة: عادل، زعيتر، د. ط، مصر: مؤسسة هنداوي.
25- مؤنس حسين، (1950م)، "السيّد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين"، المجلّة التّاريخية المصرية، ع1، مج3، ماي، مصر، ص. ص (37-87).
26- مؤنس حسين، (2004م)، كيف نفهمُ اليهود، ط4، القاهرة: دار الرشاد.
27- مظهر علي(1947م)، محاكم التّفتيش في اسبانيا والبرتغال وغيرها، د. ط، مصر: المكتبة العلميّة.
28- يحياوي جمال، (2011م)، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين، ط1، الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف.
29- النّعيمي أحمد نوري،(1997م)، اليهود والدّولة العثمانية، مؤسّسة الرّسالة- بيروت- الأردن: دار البشير.
30- Fernandez Suarez Luis, (1983), les juifs Espagnoles au moyen âge, Paris, Gallimard.